النبويات الشنقيطية(ملاحظات في البنية والأسلوب)

أ. محمد بن أحمد بن المحبوب
انواكشوط – موريتانيا

تمهيد:

إن الموضوع الذي يسعى إلى محاورته في هذه السطور هو: (النبويات الشنقيطية) (ملاحظات في بنية والأسلوب) وهذا العنوان يتألف من أربع وحدات معجمية أساسية نرى لزاما علينا إبراز دلالتها فـ (النبويات) جمع نبوية نسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

أما (الشنقيطية) فإنها نسبة إلى مدينة (شنقيط) في ولاية أدرار بالربوع الموريتانية وكانت هذه المدينة قلعة ثقافية ومركز تجاريا وهي مع ذلك منطق ركب الحجيج لذلك نالت شهرة وسيرورة بين العالمين فصارت بذلك علما على المجال الجغرافي المعروف اليوم بـ (موريتانيا).

أما(البنية) فمقصود منها هنا ايضاح الهيئة التي يؤسس عليها الشعراء نصوصهم إذا يبنونها غالبا وفق جملة من الخصائص والميزات، أما (الأسلوب) فهو لغة الطريق ومرادنا منها إبراز طرائق الشعراء في تعبير عن تعلقهم الشديد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلكل شاعر طريقته الخاصة في التعبير وأسلوبه الفني المتميز.

وإذا كانت هذه القصائد الشعرية المادحة للرسول صلى الله عليه هي أساس الخطاب المديحي ومادته الأولى فما المقصود بالمديح النبوي عموما؟ ومتى رأي هذا اللون الأدبي عبرها؟ وما البنية الأساسية للقصيدة النبوية ؟ وكيف كان أسلوبها؟ وهل أبدع أصحابها وجاءوا من الأمر جديدا أم إنهم رددوا وأعادوا؟

ذلك ما تروم هذه الوريقات الاجابة عنه مميزة أولا بين مصطلحي (المدح)و (المديح) فالأولى في نظرنا يمكن أن يقصر على تعداد مآثر الفضلاء والمحسنين من بني البشر الذين لم يبلغوا مرتبة النبوة.

أما المديح فيبدوا أنه انتقل من العام إلى الخاص من الدلالة على التمجيد عموما ليصبح حكرا على النموذج الشعري الذي يتخذ شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعا له ذلك أن مرور الأيام وتضخم الرصيد الشعري المنجز ثناء على الرسول -حيث يعرض لكريم شمائله وبشائرة الدعوة. وقد مال بعض الدراسين المعاصرين إلى هذا الرأي مؤكدا أن:(مديح سيد المرسلين فن استحدثه المصريون في القرن السابع الهجري فأصبح غرضا قائما بذاته لا يشاركه القصيدة سواه)[1] ولعل في التخصيص مصطلح " المديح" للثناء على الرسول صلى الله عليه السلم دون مصطلح " المدح" نوعا من تكريم هذا الرسول وإعظام شانه وتقديس جنابه تقديسا تجسد على مستوى اللغة والأصوات فجاء حرف " الياء"عليه دليلا. فالعرب إذا زادت معنى أما بوادر هذا الخطاب الشعري في بلاد شنقيط فلا يمكن أن نجزم في شأنها برأي قاطع لندرة المراجع ولآن أما يوارد هدا الخطاب الشعري في بلاد شنقيط فلا يمكن أن نجزم في شأنها براي قاطع لندرة المراجع ولأن التاريخ الثقافي للبلاد لم يكتمل تدوينه بعد، ومع دلك يمكن القول إن مناطق البلاد الشرقية قد عرفت الأشعار التوسلية والابتهالات الدينية منذ القرن العاشر الهجري [2]. غير أن النصوص المديحية لم تظهر بشكل واضح إلا مع جيل سيد عبد اللهبن محم المعروف بابن رزاكه (ت1144هـ)، ومحمد اليدالي (1096هـ-1144هـ) فقد كانا من أوائل الشناقطة الذين خلفوا نصوصا في هذا الجانب. وسنعمل جهدنا على تتبع هذا اللون الأدبي في المنتوج الشنقيطي منبهين إلى مسيرته وتطوره من الأمس إلى اليوم مقسمينه إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة النشأة والانطلاق، مرحلة النضج والاكتمال ومرحلة التعميق والاتساع، وسنرتبها تباعا في مايلي:

- مرحلة النشأة والانطلاق:

ونقصد بها أول فترة شعرية في البلاد بلغتنا نصوصها، وتمتد من القرن العاشر الهجري حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وقد امتاز منتوج هذه الفترة بالابتعاد عن المقدمات حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وقد امتاز منتوج هذه الفترة بالابتعاد عن المقدمات مع الميل إلى الإكثار من التوسل، فكانت هذه المواضيع محاور ثابتة في بنية القصيدة النبوية، وتندرج ضمن الفترة أصوات شعرية عديدة لعل أبرازها ابن رازكه الذي سطر يذوب من سكر المحبة ليعرض عن اللوام ولا يقيم لهم وزنا، يقول:[4]الطول

غرام سقى قلبي مدامته صرفا ولما يقم للعذل عدل ولا صرفا

ويمتد النص في نغم شعري متدفق يجمع بين العشق النبوي وبين التميز الأسلوبي مازجا لذلك بكريم الخصال وحميد الثناء يقول:[5] الطويل.

أيا من سقت ألفا ظماء بنانه كما وهبت ألفا كما هزمت ألفا

يد سميت من فادح الفقر راحة كما سميت في كفحا للعدا كفا

نبي وقانا صرفي الدهر يمنه فها نحن لا أزلا نخاف ولا عنفا

ويأتي محمد اليدالي ليجعل للمديح نصيبا مفروضا في كل إنتاج شعري مؤكدا أن امتداح النبي صلى الله عليه وسلم مطهرة الشعر وزكاة القريض يقول: [6]الطويل.

زكاة القريض الذب عن كل مسلم ومدح النبي المختار والآل والصحب

واكثر من ذلك يجسد هذا الرأي مخلفا في ديوانه أربع نبويات نكتفي باثنتين منها فالأولى مطولة تقع في احدى وعشرين وثلاثمائة والأبيات (321بيتا)وقد افتتحها بالثناء على الله والإخلاص له في العبادة دون أن ينسى الصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ،يقول:[7] المجتث.

باسم الإله ابتدائي ومختمى وانتهائي

والحمد الله في كل شدة ورخاء

يارب صلي وسلم على النبي بالولاء

أما الثانية فقصيد" صلاة ربي" وهي نبوية ذائعة الصيت صاغها الرجاء على أوزان الشعر الحساني، وقد ركز في مطلعها على الجر النحوي بنوعيه " الإضافي" "والحرفي" عاملا على استدراج القارئ وجره عبر أدوات اللغة نحو موضوعه مكملا ذلك بجملة من الوصفات التي ألحت على نبل الممدوح وفضلة"بادى الشفوف" دون أن تنسى كريم خلاله المستمدة من هدي القرآن"دانى القطوف" معرجة بعد ذلك على بره وعطفه" بر عطوف" منتهية إلى قوة بأسه وسلطانه"ليث همام" [ز]يقول:

صلاة ربي مع السلام على حبيبى خير الأنام

بادى الشفوف دانى القطوف بر عطوف ليث همام

ونعرج يسيرا على الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحسني (القرن 12 هـ)الذي ضم ديوانه عدة نبويات نكتفي بواحدة منها اعتمد في فتحتها الجناس التام معبر عن شدة تعلاقه بالجناب النبوي مقدما نفسه فداء وخده فراشا لنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [ح]الطويل

أعيني وجدا هرقان معادما نجيعا حكى لونا على الخد عندما

فحاولت من هم الغرام تخلصا وأعرضت عن إلزتم ما ليس ملزما

وقبل فكري إثر نعل محمد ولو جئت مغناه لقبله فما

فياليت خدي كان موطئ نعله وصدري ضريحا جامعا منه أعظما

عظاما ولحما حرم الله أكلها على الأرض إنعاما لها وتكريما

وننتهي إلى مصطفى بن بو أحمد المجليسي المعروف ب" بوفمين"(ت1200هـ)الذي صعد نداء شعريا أنزل خلاله الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة عالية لا يدركها البشر مستشفعا به يوم لا ينفع مال ولا بنون يقول: [ط]البسيط

يا من أراد به الرحمن منزلة فوق الأكارم عند الله تدخر

يا بالغا من علو القدر منزلة ما فوقها غير ما لا يدرك البشر

كن لي شفيعا إذا ما الناس أجهدها خوف الملائك والنيران تستعـــــر
وكن رفيقي وكن أنسي وملتجـــئي لا يفزعني ذاك الهول والغـــرر
عليك من صلوات الله أشرفهـــــا مادامت الأرض يحي وحهها المطر

ب - مرحلة النضج والاكتمال:

وتغطى هذه المرحلة سنوات القرن الثالث عشر الهجري، فمع حلول هذا القرن عرفت البلاد زهرة الحياة الثقافية، وطفق غيث المدائح النبوية ينهمر بعد أن بدا قطر فتعددت منه النصوص والأساليب، بل لم يخل ديوان شاعر من بعض نماذجه، واخدت المقدمات الغزلية تطفوا على أديم النصوص بعد كانت محتشمة لا تظهر إلا على اسحياء. وقد امتاز الخطاب المديحي في هذه الفترة بالكثرة والتنوع والنضج والاكتمال وطول النفس، مع الميل إلى محاورة القديم ضف إلى ذلك الإلحاح على التصريح بعجز اليراعة والقوافي عن استيفاء هذا الموضوع حقه من الإبانة والبيان. وقد ظهرت في مختلف مناطق البلاد وجوه شعرية همها الناصب ينحصر في الحنين إلى الحرم والشوق إلى رياض محمد صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وامتداح هديه ونظرا لكثرة شعراء الفترة وضيق هامش الموضوع فإننا سنقتصر على نماذج يسيرة بالشاعر مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي (ت1244هـ) الذي وصفه صاحب الوسيط قائلا: "وكان مداحا للرسول صلى الله عليه وسلم"وسنقف قليلا مع مرجانيته وجيميته منبهبن إلى تميز مطالعه الشعرية حيث النزم خلالها بالصلاة والسلام على رسول الله ليعرج بعدها على الغزل يسيرا متخلصا إلى المديح، ففي قصيدة المرجانية مثلا بدأ بالصلاة واللام على رسول الله ليمر الغزل منتهيا إلى ممدوحه الذي أكد فضله وخيريته مشيرا إلى أنه أقام الحجة واتصف بالصدق والأمانة وجاهد في الله حق الجهاد يقول:" البسيط

أزكى صلاة وتسليم على قمـر بدربه قد أنار الله أكوانـــــه
يارب صلي عليه دائما أبـدا ما حل أعراض هذا الكون أعيانه

محمد خير مبعوث أقام علـى ما يدعيه من أمر الله برهانـــه
وخير من قد نفت عنه أمانته وصدقه الكذب والكتمان والخانة
وخير من شام لله السيوف ومن نمى القتود على زدناء عيرانـــه

ويأتي المطلع في قصيدته الجيمية ليقرأ السلام على من أخرج الناس من الظلمات إلى النور يقـول :[ل] البسيط

صلاة ربي وتسليم على قمر بدر جلا ظلمات الفتنة الدعجا

ليبلغ الشاعر بعد ذلك إلى صميم الموضوع مؤكد اندفاع قلبـه إلى التعليـق بـالمدوح معـرض عـن كـل مظهرفتان مشيرا إلى انطلاق لسانه بالمديح من غـير وعـي حيـث ترجمـت اللغـة بامانـة هواجـس القلب معبرة عما أصابه من سكر المحبة ونشوة الشوق إذا امتزج الغـرام بجسـمه وروحـه وجـرى الحب من نفسه مجرى الدم والنفس، يقول:[م] البسيط

أبى فؤادي إلا حب ملجئنـــــا ملجئ البرية منجى من إليه لجا
أبى فلا شنبا يهوى ولا بلجـــــا يهوى ولا برجا يهوى ولا دعجـا
لي لهجة بامتداح المصطفى لهجت ولي فؤاد بحب المصطفى لهجـــا
ألا طربت ألا إني طربت إلـــى من حبه مع لحمىوالدم امتزجا

ونصل إلى محمدوبن محمدى العلوي (ت1272)الذي بلغ الخطاب المديحي على يديه ذروته فرسـخ المقدمات الغزلية وحسن التخليص، وكانت لـه في هـذا الجـانب سـابقات جيـاد نقـف يسـيرا مـع واحدة منها افتتحها بمقدمة غزلية تكشف عن شدة تأثير التفرق وفاعليته مؤكد أنه مثـير الشـوق ووقود الغرام ملتمسة العذر في العجز عن الصمود أمام سلطان الحب الذي يصرع المكـابد ولا يقـوى على مجابهته أحد، يقول: [ن]الكامل

هاج التفرق فإعذليني أو دعـــي شوقا أصم عن العوادل مسمعي
لا تنكري مني الشحوب فهكـذا فعل الفراق كل صب مولـــع

ثم يتخلص إلى المديح مشبعا نصه ببديع استعارة ورفيع البيان جاعلا مفزعه إلى خير البرية منتهيا إلى التنويه بالمولد الذي حسنت به الأوقات وتعطل منه الزمان، يقول: [3]

إني فزعت وفكرتي جعت إلى ... خير البرية مشتكاي ومفزعي
إنسان عين الكون غرة وجهة ... حاوى التفرد بالمقام الأرفع
يا مولد الهادى لنشرك نفحة ... أرج الزمان لنشرها المتضوع
أكرم بمولد ذى بيومه ... وبعمه وبشهرة والموضع

ويتبع الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي (ت 1286 هـ)هذا السبيل مخلفا في ديوانه عدة مختمات مديحية بالإضافة إلى واويته المشهورة التي يبدو أن الشوق صرفه عن الإكتراث بمقدمتها الغزلية فانطلق لسانه بالترحيب معددا شمائل الممدوح صلى الله عليه وسلم، مؤكدا طيب عنصره وشرف أرمته، متلبثا مع الأبعاد المولودية غير يسير، تلك الأبعاد التي بفعلها تجدد الوجود وأخرج الناس من الظلمات إلى النور وعمت البركة واليمن فيكفى المولود أنه مبتدأ أمر السنة ومنطلق النبوة والمعجزات ومن ثم فهو في ثقافتنا العربية الإسلامية مجددا قطع غيار الإيمان ومحرك الفكر ومثير التأليف يقول:[4] لبسيط

أهلا بصاحب هذا المولد النبوي ... مقابل الطرف الأمي والأبدي
أهلا بميلاد من لم يحك مولده ... من الظروف مكاني ولا ملوي
أكرم بها ليلة غراء مسفرة ... عن غرة في محيا الضئضىء القصوي
ياليلة المولد الميمون طالعه ... طوى زمانك من فيه الزمان طوي
طوى الذي طوي السبع الطباق له ... طيا وزيا له بسط البساط زوي
لولاك ما أنزل الذكر الحكيم ولا ... الدسن القويم ولا ما في الصحاح روي
ولا وعاه ابن مسعود ولا أنس ... ولا رواه أبو داوود والنووي

ونبلغ الشيخ محمد المامي (ت 1292 هـ)الذي سطر ديونه عدة نبويات أبرزها همزيته التي عارض بها همزية البوصيري وقد أبان خلالها استحالة الإجادة في وصف شمائل لرسول بعد أن

أثنى عليه القرآن بما لا مزيد عليه فكأنه بذلك يقدم استقالة البلغاء المبدئية من الإبداع في المديح لشعورهم بالعجز والقصور عن مستوى البيان الذي دشنه القرآن بأسلوبه منتهيا إلى مهابة الممدوح وحسن طلعته وتأثير بركته إذ بريقه يعذب الملح الأجاج وبلمسه يشفى المريض المحتاج، يقول: فالخفيف

كيف يسطيع مدحك البلغاء ... ومن الله قد أتاك الثنـــاء
قاصر عنه ما يدبج سحبـا ... ن وقس وهذب الشعـراء
ونظام المعلقات اللواتـــي ... قسمتها الأستار والجيداء
لم يلد مشربا كأحمد ذاتـا ... وحلى آدم ولا حـــواء
وأبطحي بريقه يعذبـــب ... الملح وتشفى بلمسه الأدوار

ويتخذ عبد الله بن امبوي الولاتي (القرن 13 هـ)أسلوبا متميزا عماده التنويه بالخطاب الشعري وذلك لم له من ملاذ بالقلوب وحظوة عند الأمراء فالشعر مهزة أهل الفضل ومجلبة السرور وهنا ينزل الرجل الأشعار منزلة عالية، ويأخذ في المفاضلة بين أغراضها متخلصا إلى تفوق المديح النبوي وتقدمه، وذلك عبر اسمي التفضيل " أجله "، " أنفعه " منتهيا إلى حصر الشاعرية في منتجي هذا الخطاب يقول :ف الكامل

الشعر يعرف فضله الشعراء ... ويطيل قامة شخصه الأمراء
الشعر يجتلب السرور وكأنه ... غيث تجود به عليك سمـاء
وأجله دنيا وأنفعه غـــدا ... ما كان فيه على النبي ثنـاء
مدح النبي لمادحيه سكينـة ... وتجارة فيها أتيح نمـــاء
إن الذين يجددون مديحـــه ... فيغردون به هم الشعـــراء

ونجتاز إلى الشيخ محمد ابن حنبل (ت 1302 هـ)الذي استودع ديوانه عدة نبويات نكتفي بواحدة منها استهلها بالغزل متخلصا إلى يمن الممدوح وبركته إذ بولوده انجاب الغشاء عن الأفئدة وتنفس الزمان وانزاحت الكرب فعم الخير وأخصبت الأرض يقول :ص الكامل

رد البلابل والغرام الساري طيف سرى أهلا به من سار

إلى أن يقول :

لله منفوس به قد نفست كرب الزمان وسدفة الأغيار

سعدت قوابله وحضنه به كسعادة الإخوان والأظئار

وبه أوان رضاعه وفطامه طلعت نجوم السعد في الأقطار

وغدت حليمة ترتعي في روضة غناء عام المحل والإقتار

وننتهي إلى أحمد بن محمد سالم المجلسي (ت 1307 هـ)الذي انتهج منهجا خاصا إنطلق فيه من البكاء على مغاني النبوة والوحي ومعاهد الغزو والجهاد معبرا عن تعلقه الشديد برسول هذه الأمة حيث يجد اللذة في وصف سمائله، بل وفي الاستماع إليها، ذاكرا في نصه أمثلة تشير إلى أن ممدوحه للمعروف باذل، وبالمؤمنين رحيم، وعلى تربية القلوب عامل منتهيا إلى التصريح بعجز البشر عن إعطاء المديح حقه من العناية اذ تتذبذب روعة اليراعة والقفافي أمام بيان القرآن، يقول: [ق]الوافر

أتذرى عينه فضض الجمان غراما من تذكره المغاني

مغان بالعتيق إلى المنقى إلى أحد تذكرها شجاني

بعيشك صف شمائله فإني أحن إلى شمائله الحسان

يلاقى المعتفين بهم رحيما لدى اللزبات منهمر البنان

يجود من العلوم بمكفهر يسح على القلوب مدى الزمان

وهل تثنى العبيد عليك يامن على أخلاقه تثنى المثاني

ج - مرحلة التعمق والتوسع :

وتمتد على طول سنوات القرن الرابع عشر الهجري، وأثناء ها تنوعت أساليب المديح فشملت معارضة القديم ونقد الواقع والتأثر ببديعيات عصر الضعف، وقد ازداد حجم هذا الغرض في الخطاب الشعري الموريتاني فأصبحنا نصادف عند البعض دواوينا خاصة بهذا الموضوع ضف إلى

ذلك ترسخ تقاليد إحياء المولد النبوي حيث أصبح مناسبة لانشاء الشعر وإنشاده فظهرت المولديات التي تتخذ من هذا الموسم وسيلة إلى استحضار النموذج النبوي عاملة على إستنهاض الهمم وإثارة الحماس، داعية إلى استخلاص الدروس والعبر من تلك الذكريات المليئة بالدلالات والمعاني، ويبدو أن عدد الشعراء تضاعف كثيرا في هذه الفترة ولكن المقام يلزمنا بالايجاز لذلك سنقتصر على خمسة أوجه شعرية متخذينها أمثلة على هذا الخطاب وسنبدأ بمحمد فال بن محمذن الملقب(ببها)(ت1334 هـ)الذي جرد يراعه المادح تميزه عن البشر عبر اسمي التفضيل "أبهى" و"خير" مشيرا إلى حسن طلعته وروعة جماله، منتهيا إلى أنه جاهد الكفار وأدى المناسك حقها يقول :[1] البسيط

أدخلت نفسي ومن خالت من أحد ... في أليم والصاد من لفظ اسمك الصمد

وفي الدوائر من لفظ الجلالة والـ ... ـميمين ميمي سماك المومن الأحد

والميم والظاء من لفظ المحيط كما ... أدخلتم جيب طه مظهر المدد

أدخلتهم جيب أبهى من به سبحت ... شياظم العيس من بطحان للبلد

وخير من طاف بالبيت العتيق ومن ... وافى المناسك فوق جسرة أجد

ونعرج على البشير بن امباركي (ت 1354 هـ)الذي اتبع نموذجا من المديح النبوي جديدا يعتمد معارضة القديم محتفظا بالبيانات والقوالب، مجددا في الدلالات والمعاني فهو بذلك يبقى على الأسلوب الجاهلي ولكنه يشحنه بمضمون إسلامي رفيع، فنراه مثلا يحاور قصيدة النابغة الذبياني "يادار مية" مضمنا بعض أشطارها محولا غرضها من الأسلوب الغزلي إلى المديح النبوي، معربا عن حنينه إلى ربوع مكة وأكناف طيبة، آمرا قومه بشد الرحال إلى الحرم، ناصحا بإخلاص العبادة لله، ناظما مضمون سورة الإخلاص، داعيا إلى العض بالنواجذ على السنة، مؤكدا على ترسم خطوات الرسول متوجا نصه بأفضلية الممدوح اذ هو سيد ولد آدم ولباب صفوة الأنام يقول[2]:

أشتاق مكة بين الغيل والسعد ... (لادارمية بالعلياء فالسند)

وجدي حنيني إلى دور بطيبة قـــد (أقوت وطال عليها سالف الأبـــد)
ياصاح فاغد إلى تلك الربـــوع ورح (وانم القتود علةى عيرانة أجـــاد)
وانهض بعزمك في نهج الرسول وسر (نحو الجليل على مستأنس وحـد)
واخلص لولاك لا تشرك لا به أحـــدا (فإن مولاك لم يولد ولم يلـــــد)
ولتتصل بهدى المادى فان لـــــه (فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد)
هو الرسول الذي مامثله أحـــــد (ولا أحاشي من الأقوام من أحـــد)

ونصل إلى زين العابدين بن أجمد اليدالي (ت1358هـ) الـذي تركـز اهتمامـه علـى ربـط المديـح النبوي بفن البديعيات ناظما قصيدة تجمع بـين المديـح وبـين مصطلحـات علـم البديـع عـاملا علـى شرحها، وقد افتتحها ببراعة استهلال تشـير إلى أن الرسـول صلـى الله عليـه وسـلم أزال غيـاهب الشرك وجلى ظلم الكفر، يقول: "وكنت مغرما بمدحه صلى الله عليه وسلم باذلا وسعي فيـه، فلـم يتفق لي منه شيء إلى أن فتح اله علي بنظم قصيدة بديعية تنيف على مائة بيت ويزيد ما فيها من البديع علـى أبياتـها (...)ووضعـت عليـها شـرحا لطيفـا سميتـه "شـوارق الأنـوار في مـدح النـبي المختار". ومطلع القصيدة هو

براعة المدح في عرب بذى سلم كمطلع البدرجلى حالك الظلم

ونمر يسيرا على الشاعر ابى مديـن (ت1362هـ)الـذي ركـز في نبوياتـه علـى المحبـة ذاكـرا تأثيرها على نفسه حيث تملكه الشوق إلى درجة النشوة والسكر منبها على عذوبة الحب النبوي، ذلك الحب الذي يصرف عن اللهو ويصد عن سبيل هيف الخصور. ومن بعد يؤكد أن ممدوحه نـور الظلمة ودرة نحر الزمان، واصفا كل أرض لا تحتضنه بسوء المناخ وضبابية الأجواء، يقول : الخفيف

حل في القلب حب طه فتاهـا إنما الفخر كله حب طـــــه
إن من ذاق حبه لم تصـــده ذات حين بحليها وحلاهـــا

كيف أسلو عن ذكر طه وطه منشأ الكائنات قطب رحاهـــا
هو بدر لليلها وإذا مـــا وضح الصبح فهو شمس ضحاها
إن أرضا لم تحوطـــه لارض سءم القلب بردها ونداهـــا

ونختم بالشاعر المعاصر أحمد الحسن بن الشيخ محمد حامد الذي نراه يحي ذكرى المولد النبوي باثا من الروح الإسلامية، منتقدا الواقع، مذكرا بعهود العزة، جاعلا من المولد النبوي بطارية إيمان تدفع الحيرة وتطرد الشك داءيا إلى تدبر معاني هذه الليلة المباركة مشيرا إلى ابتعاد المسلم اليوم من منهج الله حيث يلهث ور'ء سراب الآخر مستبدلا حياة غير حياته وتقاليدا غير تقاليده، لينتهي إلى تصعيد نداء صارخ يعيد الاعتبار إلى المولد الذي معه تجدد الوجود، وطفق التاريخ يتلمس الطريق بعد أن ضل السبيل قرونا يقول: البسيط[6]

ذكرى تزيد ذوي الإيمان إيمانا وتطرد الشك عمن بات حيرانـــا
تزورنا والمآسي السود تمضغنا والأرض تملؤها أشلاء قتلانـــا
ذكرى لو أنا تدبرنا معانينـــا شكرا لأيلول أو شكرا لنيسانـــا
ولا ركضنا وراء الآل في صخب ترى لآذار دون الله إحسانـــا
يا ليلة بدأ التاريخ رحلتـــه فيها على الدرب بعد التيه أزمانا
نسوك لكنهم لما نسوك نســوا وهاهم اليوم يزدادون نسيانـــا

وفي أعقاب هذه السطور نخلص إلى التأكيد على الحضور المكثف للنبويات في الشعر الشنقيطي، وذلك ما أشار إليه العالم الأديب المختار بن حامد قائلا: " إن المديح يسجل الرقم الأعلى في شعر الشناقطة". وبعد معايشتها لهذه المدونات المديحية توصلنا إلى أن الشعر النبوي يقوم على بنية ثابتة تنطلق من المقدمات الغزلية غالبا وربما ركنت إلى فواتح تعتمد الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسمل متخلصة في كلا الحالين إلى صميم الموضوع، مستعرضة الشمائل، معرجة على المعجزات، مستطردة إلى حوادث السيرة وإرهاصات المولد وآيات النبوة، متحدثة أحيانا عن تاريخ الدعوة ومناقب الصحابة منتهية إلى محور التوسل والابتهال موشحة النص بقفل الختام

القائم على الصلاة والسلام على الخبري على الجانب المتعلق بتعداد صفات الممدوح وحوادث السيرة وأنواع المعجزات ليحضر الأسلوب الإنشائي في محور التوسل والابتهال، وذلك تثبيتا للهدي النبوي في الأذهان وتعبيرا عن الصدق في التضرع والدعاء.

وصفوة القول إن هذه النصوص النبوية ديوان جامع لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله، بل هي مذكرات عطرة تقص علينا من حياته وسلوكه، فالنبويات الشنقيطية دروس في التهذيب الأخلاقي شاملة، بل حصص مراجعة لهدي الرعيل الأول وفقه السيرة لذلك نراها تنزع نزعة ماضوية داعية إلى الانتقال من الواقع الأليم المدنس إلى الترامي في أحضان الغابر الكريم المقدس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإحالات

[1]-عالى صافي حسين: الأداب الصوفي في القرن السابع الهجري، دار المعارف، مصر 1980 ص 56 .

[2]- من أقدم ماحفظ التاريخ الشنقيطي من المديح النبوي توسيلة منسوبة لمحمد قلي (القرن 7هـ) ومطلعها:

الحمد لله مادام الوجود له حمدا يدوم دوما ليس ينحصر

[3]- أحمد بن الأمين الشنقيطي :الوسيط في تراجم أدباءشنقيط،الخانجي،مصر1989ط:1ص 4

[4]- المرجع السابق :ص5

[5]- الأمير بن آكاه: تحقيق ديوان محمد اليدالي،المدرسة العليا للأساتذ،1980 ،ص 71

[6]- المرجع السابق ص 46

[7]- ابن الأمين: الوسيط،مرجع السابق ص 223

[8]- د. محمد المختار بن اباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، الشركة التونسية،ط1 ،1987 ص 143

[9]- مقابلة مع العالم محمد يحي بن سيد أحمد العامل بقسم المخطوطات بدار الثقافة، يوم 25.5.99

[10]- ابن الأمين: المرجع السابق ص21

[11]- المرجع السابق ص 197

[12]- المرجع السابق ص 208

[13]- المرجع السابق ص 209

[14]- المرجع السابق ص 55

[15] - المرجع السابق ص 56

[16]- ابن اباه: الشعر والشعراء مرجع السابق ص 189

17- المرجع السابق ص 192-193

[18] - المرجع السابق ص 199

[1]9 - المرجع السابق ص 183

[2]0 - المرجع السابق ص 205

[2]1- ديوان الرجل مخطوط بقسم المخطوطات.

[22]- محمد فاضل بن أحمدو: تحقيق ديوان البشرين انباكي، جامعة انوكشوط،89/90 ص 35

[23]- مخطوط بحوزتنا

[24]- بن اباه: الشعر والشعراء مرجع سلبف ص 214، 215.

[25]- مخطوط بحوزتنا